تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت وسيارات وأفلاك دائرات والجميع مسخرات وكم في الأرض من قطع متجاورات وحدائق وجنات وجبال راسيات وبحار زاخرات وأمواج متلاطمات وقفار شاسعات وكم من أحياء وأموات وحيوان ونبات وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات فسبحان الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات وغير ذلك .

وقوله : { وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون } قال ابن عباس : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ومن خلق الأرض ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله وهم مشركون به وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وفي الصحيحين : أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا : لبيك لا شريك لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : [قد قد] أي حسب حسب لا تزيدوا على هذا وقال الله تعالى : { إن الشرك لظلم عظيم } وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم ؟ قال : [أن تجعل لله ندا وهو خلقك] .

وقال الحسن البصري في قوله : { وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون } قال : ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله ذلك يعني قوله تعالى : { إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا } وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالبا فاعله كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرا فقطعه ـ أو انتزعه ـ ثم قال { وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون } وفي الحديث [من حلف بغير الله فقد أشرك] رواه الترمذي وحسنه من رواية ابن عمر وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وغيره عن ابن سعود Bه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم : [إن الرقى والتمائم والتولة شرك] وفي لفظ لهما [الطيرة شرك وما منا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل] ورواه الإمام أحمد بأبسط من هذا فقال : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن عمرو بن مرة عن يحيى الجزار عن ابن أخي زينب عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه قالت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة فأدخلتها تحت السرير قالت : فدخل فجلس إلى جانبي فرأى في

عنقي خيطا فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت : خيط رقي لي فيه فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد ا لأغنياء عن الشرك سمعت رسول ا صلى ا عليه وسلّم يقول : [إن الرقى والتمائم والتولة شرك] قالت : قلت له : لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها فكان إذا رقاها سكنت فقال إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال النبي صلى ا عليه وسلّم : [أذهب الباس رب الناس اشف وأنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما] .

وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد عن وكيع عن ابن أبي ليلى عن عيسى بن عبد الرحمن قال : دخلت على عبد ا بن عكيم وهو مريض نعوده فقيل له لو تعلقت شيئا فقال : أتعلق شيئا وقد قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [من تعلق شيئا وكل إليه] ورواه النسائي عن أبي هريرة وفي مسند الإمام أحمد من حديث عقبة بن عامر قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [من علق تميمة فقد أشرك] وفي رواية [من تعلق تميمة فلا أتم ا له ومن تعلق ودعة فلا ودع ا له] وعن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة Bه قال : سمعت رسول ا صلى ا عليه وسلّم يقول : [قال ا : أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه] رواه مسلم .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول ا صلى ا عليه وسلّم يقول : [إذا جمع ا الأولين والاخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله فليطلب ثوابه من عند غير ا فإن ا أغنى الشركاء عن الشرك] رواه الإمام أحمد وقال أحمد : حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد يعني ابن الهادي عن عمرو عن محمود بن لبيد أن رسول ا صلى ا عليه وسلّم قال : [إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر] قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول ا ؟ قال : [الرياء يقول ا تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم : اذهبوا الى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟] وقد رواه إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد به وقال الإمام أحمد : حدثنا حسن أنبأنا ابن لهيعة أنبأنا ابن هبيرة عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد ا بن عمرو قال : قال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك] قالوا : يا رسول ا ما كفارة ذلك ؟ قال : [أن يقول أحدهم : اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك] .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد ا بن نمير حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي عن أبي علي ـ رجل من بني كاهل ـ قال : خطبنا أبو موسى الأشعري فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل فقام عبد ا بن حزن وقيس بن المضارب فقالا : وا لتخرجن مما قلت أو لنأتين عمر مأذونا لنا أو غير مأوذن قال : بل أخرج مما قلت خطبنا

رسول ا صلى ا عليه وسلّم ذات يوم فقال : [يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل] فقال له من شاء ا أن يقول : فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول ا ؟ قال : [قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه] وقد روي من وجه آخر وفيه أن السائل في ذلك هو الصديق كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي من حديث عبد العزيز بن مسلم عن ليث بن أبي سليم عن أبي محمد عن معقل بن يسار قال : شهدت النبي صلى ا عليه وسلّم أو قال : حدثني أبو بكر الصديق عن رسول ا صلى ا عليه وسلّم أنه قال : [الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل] فقال أبو بكر : وهل الشرك إلا من دعا مع ا إلها آخر ؟ فقال رسول ا صلى ا عليه وسلّم : [الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل] ثم قال : [ألا أدلك على ما يذهب عنك صغير ذلك وكبيره ؟ قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك مما لا أعلم] .

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي عن شيبان بن فروخ عن يحيى بن كثير عن الثوري عن إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول ا A : [الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا] قال : فقال أبو بكر : يا رسول ا فكيف النجاة والمخرج من ذلك ؟ فقال : [ألا أخبرك بشيء إذا قلته برئت من قليله وكثيره وصغيره وكبيره ؟] قال : بلى يا رسول ا قال : [قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم] قال الدارقطني : يحيى بن كثير هذا يقال له أبو النضر متروك الحديث وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي من حديث يعلى بن عطاء سمعت عمرو بن عاصم سمعت أبا هريرة قال : قال أبو بكر الصديق Bه : يا رسول ا علمني شيئا أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي قال : [قل : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه] رواه أبو داود والنسائي وصححه وزاد الإمام أحمد في رواية له : من حديث ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن أبي بكر الصديق قال : أمرني رسول ا A أن أقول ـ فذكر هذا الدعاء وزاد في آخره ـ [وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم] .

وقوله : { أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب ا } الاية أي أفأمن هؤلاء المشركون با أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كما قال تعالى : { أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف ا بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم } وقوله : { أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر ا فلا يأمن مكر ا إلا القوم الخاسرون }